جمعية الاتحاد النسائية في الشارقة

الغافةُ والغويفةُ

التأليف

أ. فاطمة يوسف شحّود

الرسوم

أ. فاطمة يوسف شحّود

الإخراج

م. صفوان ملاحفجي

حقوق الطبع محفوظة لجمعية الاتحاد النسائية في الشارقة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الغر الميامين.

تسعى الدول المتقدمة إلى تعزيز التراث في نفوس أبنائها لتأصيل الانتماء إلى وطنهم والولاء، ففي ذلك أثر طيب في بناء شخصية الأبناء من جهة وتعزيز الروابط الاجتماعية والإنسانية المتينة من جهة أخرى.

وانطلاقاً من هذه الرؤية سعت جمعية الاتحاد النسائي في الشارقة إلى تأصيل كل ما يتصل بالتراث الوطني والوعي بالبيئة الصحراوية لنقل ملامح تلك البيئة ورسمها في أذهانهم بصورة واضحة تعكس الأعمال العظيمة التي قام بها الآباء والأجداد، ليقدروا دورهم، وليسيروا على خطاهم في مواصلة مسيرة الاتحاد.

وتآزرا مع توجيهات القيادة الحكيمة في المحافظة على أشجار البيئة المحلية ونصرة لكل شجرة طيبة في أرضنا الحبيبة ارتأت الجمعية تقديم قصة (الغافة والغويفة)، وهي واحدة من مجموعة قصص ستصدرها الجمعية النسائية في الشارقة، ستتناول الأشجار التي تعيش في الإمارات، وترصد أبعاد البيئة المحلية في ظل القيم الإنسانية والاجتماعية التي كانت نبراس تلك الحياة في الماضي مع مد أطياف التراث الوطني في البيئة الصحراوية من خلال هذه السلسلة التراثية بقصد توعية الأبناء في مرحلة التعليم الأساسي / الحلقة الأولى باللغتين العربية والإنجليزية، وستتضمن كل قصة من قصص هذه السلسلة أنشودة ونشاطاً معجمياً للألفاظ المحلية التي وردت في القصة لحفظ تلك الألفاظ وتثبيتها في أذهان الأبناء سائلين المولى أن يوفقنا فيما عزمنا عليه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

إدارة الجمعية النسائية في الشارقة

فـي ليلةٍ مِنْ لَيالي الشّتـاءِ الْبارِدَةِ وقُبيلَ الْفَجْرِ أبرقتِ السّماءُ وأرعـدتْ، وهبّـتْ عواصِـفُ شَديـدةٌ تلاهـا سُقـوطُ أمطـارٍ غزيـرةٍ. نَهَضَ (الشيبةُ) مصبـحٌ على صوتِ الْمطرِ وأذانِ الْفجر، وأطلَّ من

نافـذةِ بيتـهِ علـى منظرٍ جميلٍ تكتنفـهُ ألوانُ قوسِ قُـزَحَ، فسبَّحَ اللّه وحَمَـدَهُ، ثُمَّ تَوَضَأَ، وأقامَ صلاةَ الفجـرِ، ونَفْسُهُ تَدْفعُهُ إلى الْخُروجِ إلى الصَّحراءِ، وَفَجْأَةً توقفَ المطرُ، كما هِيَ حالُ المطرِ في البيئَةِ الصّحراوِيَةِ دائمًا.

سَطَعَتْ خيوطُ الشّمسِ الذّهبيةِ على الْكثبانِ الرّمليّةِ، وَاسْتَحَمّتْ الأشجارُ والأعشابُ بَعْدَ مُدَّةٍ طالَ انْتِظارُها، لكنَّ الشيبة أبو خَلفانَ لمْ يَنْسَ أناشيدَ الصّغارِ للْمَطَرِ، فَراح يَتذكّرُ كَلماتٍ مِنْها، وَبدأَ يُردّدها:

طـاحْ الْمطـرْ بيـدْ اللّه كَسّـرْ حـوي عبـدْ اللّهْ

طَـاح الْمطـرْ بِرعـودُهْ كَسّـرْ حـوي سَعودهْ

اِنطلقَ أبو خلفانَ باثنينِ مِنَ الإبلِ إلى حظيرةِ حيواناتهِ سعيداً، ليشاركَها فَرحةَ الْمطرِ، وَليقدمَ لَها الماءَ والطّعامَ، فَهوَ لم يَرَها مُنذُ أَيامٍ. بَدأَ رِحلتَهُ البريَّةِ يَتأمَّلُ شَجرَ الغافِ المنتشرِ هُنا وَهُناك.

عندما اقتربَ منْ إحدى شَجراتِ الغافِ أَسرعتِ الإبلُ، وَقَدْ رَفعتْ أَعناقها نَحوَ أَغصانِ الغافةِ تَأكلُ بِنهمٍ شديدٍ منْ أَغصانِها الْمتدلّيَةِ الخضراءِ، راح أبو خلفان يُحدِّثُ نَفْسَهُ قائلاً:

«سُبحانَ اللهِ! كَمْ أَنْتِ عَظيمةٌ، أَيَّتُها الْغافَةُ! لَقدْ كَرَّمَنا اللهُ تَعالى بِكِ في هذهِ الصّحراءِ، فما أكثرَ نِعمَ اللهِ عَلى النّاس!».

أخذ يَتذكَّرُ طَعمَ (المجيجة)، وهي أَوراقُ الغافِ المفرومةُ مَعَ مَرقِ السَّمكِ، فَقرَّرَ قَطفَ قليلٍ مِنْ أوراقِ الغافِ عِندَ عَودتهِ إلى البيتِ.

وبَينما كَانَ مُسْترسِلاً بجمالِ الغافِ سَمعَ أَصداءَ أصواتٍ، فَثَبُتَ في مَكانهِ، وَأَنْصتَ مرتقبًا، ليعرفَ مَصدرَ الصّوتِ، فَسمِعَ حِوارًا يلفّهُ حَفيفُ الأشجارِ ونسيمُ المطرِ المُنْعِشِ.

قَالتِ الغافةُ، وهيَ مُستبشرةٌ سعيدةٌ:

«هـا قَـدْ رَأيـتِ بَأمِّ عَينـكِ - أَيتهـا الغويفـةُ - كيفَ ابتعـدَ عنْكِ، واتَّجـهَ إلـيّ لِخبرتهِ بما عِندي مِنْ منافـعَ تُميّزني مِنْ شَجرِ البيئةِ الصَّحراويةِ كلِّها».

ردّتِ الغويفةُ مُطْمَئنّةً:

«لا تَفرحي كَثيرًا، فالنّاسُ يَتجوّلونَ هُنا وَهناكَ كالعادةِ في مِثلِ هذهِ الأيامِ».

قالتِ الغافةُ:

«لكنَّهم لن يَخْتاروا غيري، فَأنا مُتَنزَّهٌ لَهمْ ولِحيواناتِهم. هم يَتسابَقونَ في حَجْزِ الغافاتِ الكبيرةِ؛ ليَسْتظلوا بأفيائِها الْممتدَّةِ. إنَّ أوراقي غذاءٌ نافعٌ للإبلِ ولجميعِ الأحياءِ البريَّةِ».

قالتِ الغويفةُ مستهزئةً:

«أَنْتِ غِذاءٌ ومُتَنزَّهٌ ؟! مَنْ أقرَّ لكِ بذلكَ، أيَّتُها المَغْرورَةُ!؟».

قالتِ الغافةُ: «الْبَدو وَسُكّانُ الْبيئةِ الصَّحراويَّةِ».

عندئذٍ اسْتاءتِ الْغويفَةُ، وَمدَّتْ أَغصانَها، وَتعالتْ أَصْواتُها مُسْتَغيثَةً بأَخَواتِها الْغويفاتِ، لِيَتَصدينَ للغافَةِ الْمغرورَةِ، وَقالتْ:

«هيّا للمُبارزةِ الحاسِمَةِ والْمعْرَكَةِ الْفاصِلَةِ».

وهُنا أَدْرَكَ أَبو خلفانَ خَطرَ المعركةِ، فَتدخّلَ مُناديًا بِأعْلى صَوتِه:

«وَيْحَكنَّ، وَيْحَكنَّ!».

ثُمَّ أَرْدَفَ قائلاً:

«هَلْ أنا في البرِّ أمْ أنا في الْحُلْمِ ؟ إنَّني أخافُ عليكنَّ، فَقدْ يُفني بَعضُكُنَّ بعْضًا، هذهِ الْمُشاجرةُ لَنْ تزيدَ البيئةَ الصّحراويةَ إلا تصحرًا وجفافًا، وَسَتَزيدُني حُزنًا وألَمًا، وَسَتبْكي عَليكم طُيورُ السّماءِ، وتَزولُ كُثْبانُ الصَّحْراءِ».

ردّتِ الأشجارُ مُستغربةً مِنْ كَلامِ أبي خلفانَ:

«مَنْ أَنْتَ أَيُّها الإنْسانُ حتّى تَخافَ عَلَيْنا، وتَتَدخَّلَ في شُؤُونِنا ؟!».

قالَ أبو خلفانَ:

«أَنا ابنُ الصَّحراءِ راعي الْغَنمِ والْجِمالِ، أَلا تَرْضَيْنَ بي حَكَمًا مُنْصِفًا»؟

قالتِ الشّجرتانِ، وقد تَمَلَّكها الأَمْنُ والاطْمِئْنانُ:

«قَبِلْنا بِكَ مادُمْتَ ابْنَ البرِّ الْمُخْلِصَ، فَأَنْتَ أكثرُ النَّاسِ مَعْرِفةً بكلِّ شَجَرةٍ مِنْ أشْجارِ هذهِ الصَّحراءِ مُتَرامِيَةِ الأَطْرافِ».

نَهَضَ أبو خَلْفانَ، وَقد اِسْتعادَ قوتَهُ، فأسندَ ظهرهُ الذي هدّتهُ الأيامُ إلى جذعِ نخلةٍ، واتَّكأَ عَلى عصاهُ، وَقالَ:

«أيتُها الشجراتُ المتخاصماتُ، لتبدأَ كلُّ واحدةٍ منكنَّ بذكرِ حسبِها وَنسبِها حتّى أحكمَ بينكنَّ بالعدلِ، وَلتبدأَ بالأكبرُ سنًّا والأطْوَلُ عُمرًا».

فَتقدمتِ الْغافةُ، وقالتْ:

- « أنا الغافةُ، أنا شجرةٌ ذكيةٌ، مَوطني صَحارى الْخليجِ العربيِّ الْكبير، أتحمَّلُ حرارةَ الجوِّ والعطشَ والجفافَ، معروفةٌ بِقامتي الطَّويلةِ وَخُضْرتي الجَميلةِ، أَكْرَمَني اللهُ إذْ جَعَلَ أهلُ الإماراتِ يُحافِظونَ عليَّ، ويَزْرَعونَني في كلِّ مكانٍ، وقد سمّوا أبناءَهُم وودِيانَهم باسمي، وفي إمارةِ رَأسِ الْخيمةِ الْحبيبَةِ وادٍ يُعْرفُ مُنْذُ أَزمانٍ بوادي الغافِ، وهوَ شاهِدٌ كبير عَلى ما أقولُ».

قالَ أبو خلفانَ:

«وَأنتِ أَيتها الغوّيفةُ حانَ دورُكِ، فلتعرِّفي بنفسِكِ».

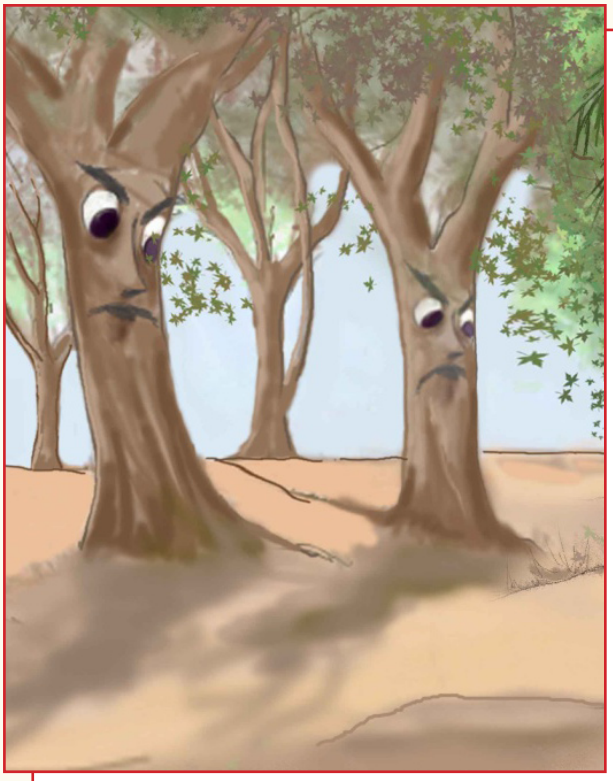

قالتِ الغويفةُ:

«أنا شجـرةٌ أعيشُ قربَ الْغافِ مُنْذُ أزْمانٍ كثيـرةُ الأغصـانِ، مُمتدَّةُ الأفنانِ، أنتشرُ بسرعةٍ، وأمتصُّ الماءَ المالـحَ مـنَ التربـةِ، فَأنـا لا أحتـاجُ إِلـى المـاءِ العـذبِ كَغَيْـري، أَمـا رَأيتُـمْ تَضحياتي؟!».

نَظَـرَ أَبو خلفانَ نحوَ أشجارِ الغافِ، فوجدَها متضرعةً إلى اللهِ بالدُّعاءِ، أمّا أشجارُ الغوّيفِ، فَقَدْ اصْطَفتْ خلْفَ الْغويفَةِ غاضِبَةً.

قالَ أَبو خلفانَ:

«أيَّتها الشّجراتُ المتخاصماتُ، لَقدْ ذَكَرَتْ كلُّ واحدةٍ منْكنَّ لِمنِ انْتَسَبتْ، وَبما أُوتيتْ مِنْ نفعٍ وَجمالٍ، فالغافةُ الجليلةُ صاحبةُ القامةِ الطويلةِ هِيَ ابنةُ الصّحراءِ العربيّةِ صديقةُ الإنسانِ مُنذُ أَزمانٍ، أَعطتنا الظّلَ وَالأمانَ».

قَاطعتِ الْغويفةُ أبا خلفانَ قائلةً:

«أراكَ تُثني على الْغافةِ، وَتدعمُ قولَها، فَحُكْمُكَ لَنْ يُؤْخذَ بالحسبانِ ما لَمْ تأتِ الغافةُ بالدّليلِ والبُرْهانِ».

تَوَجّهَ أبو خلفانَ نَحوَ الغافةِ، وسألها:

«هَلْ يُمكنُ للغافةِ أَنْ تُثبتَ ما تقولُ ؟».

أجابت الغافةُ:

«في ظلالي تَحْلو مَجالِسُ الرِّجالِ، وعلى أَغْصاني تُغرِّدُ الطُّيورُ والعَصافيرُ، وأنا مَقصدُ الأغْنامِ والجِمالِ في الصَّيفِ والشِّتاءِ. أَوراقي الْخضراءُ مَادَّةٌ مُهمَّةٌ في صِناعةِ الدّواءِ، وأنا كالكزبرةِ والْبَقدونِسِ للْبَدو في الصَّحراءِ».

قالت الغويفةُ:

«إِنْ كنتِ أطولَ قامةً وعمرًا، فَأَنا أكثرُ منْكِ قربًا إلى النّاسِ والحيواناتِ. انْظُري أَلا تَريْنَني في كلِّ مكانٍ حَوْلَكِ».

قالت الغافةُ:

«لكنّ قربَكِ منَ الإنْسانِ والأشْجارِ يضرُّهما، فثمارُكِ مُرّةُ المذاقِ، ورائحتُكِ كَريهةٌ يَنفِرُ منها جَميعُ النّاسِ، فهي تسببُ لهُمْ الأمراضَ كالرّبوِ.. لذلكَ تُحذِّرُ الأمهاتُ أبناءَها مِنَ الاقترابِ مِنْكِ، إنَّكِ سرطانُ الأرضِ».

قالت الغويفَةِ، وهي مستاءةٌ:

«لنْ تزعجُني ادِّعاءاتُكِ، فَأنا أَحْمَدُ اللهَ الَذي جَعَلَ لي ثِمارًا وأَغْصانًا كالمظلَّةِ تَقي الْعابِرينَ حَرَّ الصَّحراءِ».

قالت الغافةُ:

«أَيَّتُها الغويفةُ، ألا تَرَيْنَ أَغصاني الَّتي تَحملُ أَراجيحَ الأَطفالِ، لِتَمْنَحَهُم الفَرحَ والأَمانَ؟ ألا تَرينَ أفيائي الّتي جَعلتُها ملاعبَ للصّغارِ ومَجالسَ للكبارِ؟ ألا ترينَ أزهاري الصفراءَ، والنَّحلُ يمتصُّ رحيقَها ليَصْنَعَ العسلَ الّذي فيه الشِّفاءُ ؟ ألا تَرينَ جَذْعي الممتَدَّ في أعماقِ الصَّحراءِ، وهو يُثبِّتُ الرِّمالَ، ومِنْ أَخْشابي يُصنَعُ كلُّ ما يَنْفَعُ النّاسَ في الْبرِّ والْبَحْرِ ؟».

وَهُنا اهتزّتْ أَغصانُ الغافاتِ الصّغيراتِ والكبيراتِ، وَقلْنَ بصوتٍ واحدٍ:

«سَنظلُّ واقفاتٍ، وسنَبْقى شامخاتٍ، وَإِنْ كانَ الْحَجَرُ غذاءَنا والرَّملُ والصَّخْرُ مَأْوانا حتّى يأويَ عِنْدَنا الجملُ، ويَحكي لَنا الغنمُ، ويَشكو إِلَيْنا الطيرُ».

تَأَثَّرَ أبو خلفانَ بِما قَالَتْهُ الْغافاتُ، ثُمَّ قالَ للغويفةِ:

أيَّتُها الْغويفَةُ، لَقَدْ اعْتَرَفْتِ بِكَثْرةِ أَشواكِكِ، وَخطرِ أَضْرارِكِ، فأنتِ تقضينَ على مَنْ يعيشُ قربَكِ مِنَ الأشْجارِ والنّباتاتِ في البيئةِ الصّحراويةِ، كما أنكِ لا تنفعينَ أحدًا، لأنَّ عمرَكِ قصيرٌ، والأمهاتُ تُوصي أبناءَها بالابتعادِ عَنكِ، والغافةُ الخضراءُ

قدّمتِ الشّاهدَ والدّليلَ، وأنتِ تشكينَ مِنَ الإفلاسِ والتَّقصيرِ، فَهلْ يَستوي الكريمُ بالبَخيلِ والدّخيلُ بالأصيلِ؟

تَأوَّهـتِ الغويفـةُ، ثُـمَّ طلبـتْ أَنْ تَتَكلَّـمَ مـرةً أُخْـرى، فقالـتِ الغويفةُ:

«مَنْ يَحيا مِنَ النّباتاتِ في تربةٍ شديدةِ الملوحةِ سوايَ؟ ألستُ مِـنْ مخلوقـاتِ اللهِ؟! ألستُ شجـرةً مِنْ أشجارِ البيئـةِ الصّحراويةِ ألـمْ أشبـهُ الغافةَ في شَكلي؟ لماذا تُنكِـرونَ فَضْلي، وتأمرونَ النَّاسَ باقْتِلاعي؟».

ردَّ أبو خلفانَ:

«لَقـدْ خَلـقَ اللهُ تَعالـى الإنْسـانَ، وكرَّمـهُ، فَسخَّرَ لـهُ كلَّ ما فيهِ نفـعٌ فـي هـذا الْوُجـودِ؛ وأمـرَهُ أَنْ يَعمـرَ الكـونَ، وَهُـوَ مَسـؤولٌ عَنْ صَلاحِـهِ وخرابِـهِ.. وها أَنـتِ تَعتَرفينَ بقلَـةِ نَفْعِكِ. فـأيُّ نفعٍ مِمَّنْ يَنشُـرُ الأشْواكَ والْجَفافَ والأمْراضَ حولَنا؟ إنَّ جزاءَك مِنْ جنسِ عطائِـكِ، وَمـنْ لا يَهبُ الحياةَ عَطاءً ووَفـاءً لايستَحِقُّ البقاءَ، وعلى النّاسِ أَنْ يَبتعِدوا عنكِ».

غَضبتِ الغويفةُ، واحمرتْ عَيناها، وَأطرَقَتْ رأسَها، فاسوَدَّ جذعُها.

عندَ ذلكَ قالَ أبو خلفانَ بحزمٍ: «قرّرْتُ - أيَّتُها الْغويفَةُ - أَنْ تَكوني حطبًا للشِّواءِ، فقيمةُ الأشْياءِ بِمقدارِ ما تُعطي مِنْ خيرٍ ونماءٍ، ولا حياةَ في بلادي إلاّ للعطاءِ، لا حياةَ في إماراتِنا إلا لأصحابِ الأيادي الْبَيْضاءِ. هَيّا ارْحَلي، أيَّتُها الهَوجاءُ، وَلتَحْيا الْغافَةُ الْخَضْراءُ.

هـمَّ الشّيبَـة مصبح يبحـثُ عَنْ عُكازه، لَيعودَ إلـى بيته، وعندَما وصلَ إلى الغافةِ القريبةِ منْ بيتهِ وقفَ ليقطفَ باقةً مِنْ ورقِ الغافِ الأخضرِ، وهُوَ يقولُ:

يا مَحْلا بَرادْ القيظْ يِحْلا بظلة الغافةْ

ياخوي الشَتا مَغثةْ يِبْغي لِبسْ ولْحافَةْ

ومـا إنْ سمـعَ الصِّغـارُ صوتَـهُ حتَّـى ركضُوا نَحْوَهُ فرحينَ بعودتهِ، ثُمَّ تجمعُوا حولَـه، وقدْ لَفَتَ انْتِباهُهُمْ انشغالَ الجدِّ بقطفِ أوراقِ الغافَةِ.

استقبـلَ الشيبةُ مصبحُ الصِّغارَ بلفهـةٍ وسعادةٍ، وانْحَنى، ليقبلَ حفيدَهُ الصغيرَراشدًا، فإذا براشدٍ يقولُ:

«لماذا تقطُفُ وَرَقَ الغافِ، يا جداهُ ؟».

فـرِحَ الشيبـةُ مصبـحٌ بسـؤالِ حفيدِه، وقـالَ: سأحكي لكـمْ الآنَ حكايةَ الغافةِ والغويفةِ.

ردَّ راشدٌ، وهو يمسك بيد جده: «أحقًا ما تقولُ ؟».

وقالت ميثاء:

«وأنـا سأخبرُكُـمْ بمـا عرفْتُـهُ عـنْ أثـرِ الغـافِ فـي البيئـةِ الصَّحراويَّةِ».

أشـارَ الجدُّ إلَيْهـم بالجلوسِ، وعندما جلسوا حولَهُ قالَ لهم:

«عِشْنا معَ شجرِ هذهِ الصّحراءِ ونباتاتِها، وعرَفْنا الطَّيّبَ والخبيثَ منْ شجرِها وأعشابِها، فكانَتْ لنا الغذاءَ والدواءَ».

ردَّ الصِّغارُ بصوت واحد:

«تَحمَّلْتُمْ حرَّ الصَّحراءِ، وتَعِبْتُم كثيرًا منْ أجلِ لُقْمةِ العيشِ».

قال الجدُّ:

«هـذهِ سُنَّةُ الحياةِ، يا أولادي!

يتعبُ الأجدادُ كي يَحيا الأحفادُ».

المعجمُ اللُّغَويُّ

أتعرفُ الألفاظَ المحليَّةَ في الإماراتِ

1. أصلُ الْكَلِماتِ في الْقائِمَةِ (أ) بما يُناسِبُها في الْقائِمَةِ (ب):

(أ)	(ب)
الشِّيبةُ	سقَطَ
مَغثةٌ	أخي
خُوي	أكلةٌ شَعْبيَّةٌ
مجيجةْ	مَشَقَّةٌ
طاحْ	الرَّجُلُ المُسِنُّ

2. أكملُ ما يَأْتي:

سمّى أهلُ الإماراتِ أولادَهم ومناطق سكنهم باسمِ الغافَةِ، ومِنْها:

- أسماء الأولاد: غافان و.....

- أسماء المناطق السكنية: عود ميثا و.....

الغافة الخضراء

الغافة:

أعيشُ في صفاءْ ... لا أشكو منْ جَفاءْ

في الحينِ والحينِ ... الـرِّزْقُ يأْتيني

غافُ الرَّياحينِ ... اللهُ يُعْطيني

لابنِ البَدو حبِّي ... لابنِ الوَطَنْ قَلْبي

والجودُ منْ ربِّي ... في الْخصبِ والجدبِ

الطفل:

الغافةُ الخضراءْ ... جميلةُ الأفياءْ

تجودُ بالظِّلالْ ... كي يلعبَ الصّغارْ

ويأنسَ الكبارْ ... بمجلسِ السّمارْ

الغافةُ السمحاءْ ... تَرنو إلى السَّماءْ

الغويفة

غـــويـــفـــةُ الـــصَّـــحـــراءْ

أمـــتـــصُّ مـــلـــحَ المـــاءْ

لا أتـــــــركُ الـــبـــيـــداءْ

تـــفـــيـــضُ بـــالـــعـــطـــاءْ

كـــــثـــيرةُ الأشـــــواكْ

الـــنَّـــاسُ لي أعـــداءْ

نَـــشـــرتُ رائِـــحَـــتـــي

فـــانْـــتـــابَـــهُـــم عـــنـــاءْ

والمـــــــوتُ صـــيّرني

فَـــحْـــمًـــا لـــلـــشِّـــواءْ

الغافة

الغويفة

تمّت بحمد اللّٰه